الدولة العثمانية

﴿ تعلق مسلمي الهند وغيرهم وآمالهم فيها . ونظرة في حالها ومستقبلها ﴾

لا يظهر الاهتمام بأمر الدولة العثمانية في قطر من الاقطار الاسلامية كما يظهر في الهند ومصر لما امتازا به من الحرية وانتشار العلم . وانا نرى في هذه الايام في مطبوعات الهند مالا نراه في المطبوعات العربية ولا التركية من اللهج بالخلافة ، والخوف على دولة الخلافة ، والتألم من الحرب البلقانية ، وتمني العود اليها بعد الهدنة رجاء النصر للدولة العثمانية

ومن موجبات الاسف أن هؤلاء المسلمين لا يعرفون حقيقة حال الدولة ولا حقيقة مصلحتها ومصلحة المسلمين المرتبطة بها ، ويترتب على هذا أنهم لا يعرفون كيف ينصرونها ولا كيف يدفعون الضرر عنها ، بل كانوا ولا يزالون يظنون ان الانتصار والتعصب لكل من يتولى أمر هذه الدولة في الاستانة هو الذي يقويها ويحفظ استقلالها ، ويحفظ بحفظه الاسلام ويقام شرعه ويحمى الحرمان الشريفان

على هذه القاعدة كانوا يتشيعون للسلطان عبد الحميد المخرّب لبنيان الدولة من الداخل ، ثم صاروا ينتصرون لمن خلفوه من المخربين من الداخل والخارج ، وكانت جرائدهم مظهر هذا الانتصار ، وكان من تأثيرها اضعاف سعي طلاب الاصلاح من العثمانيين في مصر مدة زمن السلطان عبد الحميد ، وقد استطاع الاتحاديون أعداء عبد الحميد أن يستخدموا كثيرا ممن كان يستخدمهم كالحزب الوطني في مصر ، ولكن كان من شؤمهم ان سقط هذا الحزب ولم يبق له من أثر الا سفاهة بعض الشبان الحمقى تظهر في بعض الجرائد التي لا يأبه لها أحد يؤبه له في مصر

ولم يستطع المصريون والهنديون ان يفعلوا للاستانة بشيء الا ما جمعوه من المال للاعانة على الحرب وبعثات الهلال الاحمر ، ولم يكن للحزب الوطني تأثير في جمع مئات الالوف من الدنانير التي جمعت من مصر ، ولكن كان المؤيد ولمؤسس المؤيد يد بيضاء وتأثير عظيم في ذلك وهما اللذان يتهمها الحزب الوطني بمداوة الدولة العثمانية

ثم ان مسلمي الهند ومصر صاروا يخوضون في سياسة الدولة الداخلية والحربية وانني أعتقد ان جميع الهنديين وأكثر المصريين مخلصون في ذلك تدفعهم الغيرة الدينية الى هذا البحث ، ولا يشذ الا أفراد من المنتمين الى الحزب الوطني هنا فانهم مستأجرون ،

ولا تمنع الكتابة في هذا الموضوع وان كانت عن اخلاص الا اذا كانت عن معرفة صحيحة بحقيقة الحال ورأي صحيح فيما تقتضيه

نشرة صحيفة بريس من حيدر آباد

جاءتنا نسخ من هذه النشرة التي طبعت باللغة العربية لايقاظ العرب في مصر والشام والاستانة « على رغائب اخوانهم المسلمين في الهند في الازمة الحاضرة » وعهد اليهم الكاتب ان ينقلوها الى جرائدهم العربية ويترجموها بالتركية . وقد وزعنا النسخ التي وصلت الينا ورأينا من حق الكاتب الغيور أن نشير الى ما كتبه في المنار ايضا وان كنا لانوافقه على كل مارتاه . في النشرة مسائل مهمة نلخصها فيما يأتي

(١) وصف الكاتب شدة تعلق مسلمي الهند بالدولة العثمانية وان « الدولة البريطانية تعرف هذا جيدا فاستفادت بالخلافة الاسلامية ماستفادت » وذكر من ذلك ان السلطان تيبو ملك بطل الاسلام في الهند كان في القرن الثامن عشر أرسل سفارة سياسية الى سدة الخلافة ولكن رجال الدولة السلية اصدروا الفرمان الشاهاني بوجوب مودته للدولة البريطانية . وان السلطان عبد المجيد أصدر فرمانا في عهد الثورة الهندية الكبرى سنة ١٨٥٧ بوجوب طاعة مسلمي الهند للدولة البريطانية كما طلب منه الانكليز . وهكذا أصدر الفرمان للامير شير علي خان امير الافغان بوجوب الاعتصام بحبل مودة الانكليز

ونحن نقول للكاتب صدقت ونزيده أن الدولة لجهلها بقيمة منصب الخلافة لم تعمل عملا ما تستفيد به منه ، ولكن الانكليز هم الذين احيوا اسم الخلافة واستخدموه حق في عهد سلطة الاتحاد والترقي فقد حملت الوزارة الاتحادية السلطان محمد رشاد في العام الماضي على إرسال أحد انجاله بكتاب خاص من خط يده الى توديع ملك الانكليز في مياه ثغر بور سعيد عند سفره الى الهند لاجل الاحتفال بالباسه تاج الامبراطورية الهندية ، واعلان مودته له ولدولته.

ولكن مايدرينا الآن أن اظهار المسلمين لشدة تعلقهم بالدولة العثمانية صار يخيف الانكليز من عاقبته فحملهم هذا على الرضى بازالة سلطانها ، وهل ينفع الدولة حينئذ شدة حزن الهنود على ما أصابها ، وترك طلبة العلم هنالك أكل اللحم لتوفير المال لها ؟

(٢) أشار الكاتب الى أقوال الظن ان أهل هذه البلاد اطلعوا عليها كبيان جريدة (كامريد) الدهلوية لحال المسلمين الآن ، وقول الخواجة مظهر الحق (بيرستر ات لا) في محاضرة ضجت بها ارجاء الهند « ان هذه الحرب أريد بها اخراج الترك أو المسلمين من أوربة – أو حرب بين الاسلام والنصرانية » وما قاله (السير جيمس مستن افتلنت

غورنر) في خطابه لطلبة كلية عليكره . ونحن نخبره ان أهل البلاد العربية لم يطلعوا على ما ذكره ولكني أظن أنه لم يقل عندهم شيء الا وقيل عندنا مثله أو أشد ،

(٣) قال « بل الخطر ظهر جلياً لآسية الصغرى والشام والعراق بل العرب نفسها مركز قلوب المسلمين فان نفوذ أوربة في هذه البلاد أنتم أعلم به منا ولا شك انكم تعرفون كيف يزداد نفوذ ألمانية كل يوم في العراق والاناضول » وذكر طمع هذه الدولة هناك وطمع فرنسة في سورية (ولعمي أو تامى ان طمع انكلترة في بلاد العرب أشد وأوسع) وان دول أوربة أنشأت تبحث في تقسيم أملاك الدولة في آسية بعد ان فرغت منها في أوربة . ثم أشار الى ما ذهب من أملاك الدولة في القرنين الاخيرين بتدخل أوربة وانه لا فائدة في ابقاء سيادة الخلافة اسما بلا مسمى

ونقول ان خواصنا أعلم من خواصهم بكل ما قال كما قال ويرون ان الذنب على الدولة لا على دول أوربة فان أوربة قد وصلت الى درجة عالية في فتح الممالك وهي ما تسميه الفتح السلمي ومن المحال ان تبقى الدولة العثمانية بجانبها وهي على جهلها وخلافها وكسلها وعدم اهتمام رجالها بشيء غير سلب مال الامة لأجل التمتع به . ولو جارت الدولة تلك الدول في العلم والعمل والعدل في امتها والنظام والقوة لتنافسن في التقرب اليها وتسابقن الى محالفتها ، للانتفاع من قوتها ، أو تركتها وشأنها خوفاً من شدة بأسها ، فهي قد تركت كل عمل نافع واتكلت على تنازع الدول عليها ، توهما انهن لن يتفقن عليها ، فخاب ظنها وبطل وهمها

(٤) نتيجة ما تقدم والمقصد من النشرة ان إخواننا مسلمي الهند يرون انه يجب ان لا ترضى الدولة باستقلال ألبانية (بلاد الارنؤط) ولا بالتنازل عن شيء من مكدونية لان ذلك يسقط مقام الخلافة وهيبتها ويغري الدول بالجري على هذه الخطة في ولايات آسية . فيجب ان لا تقبل الدولة الصلح بحال من الاحوال ، وان لا تبالي بسيلان أضعاف ما سال من أنهار الدماء ، فالخطر على الدولة مترتب على الصلح واذاً يصير الحرمان الشريفان على خطر . وقد بالغ الكتاب في التحريض على مداومة القتال ، وأتى بما أتى به من العبر والامثال . فعلم انه هو وجمهور اخواننا المسلمين هناك يعتقدون ان بالعود الى الحرب تحفظ عظمة الخلافة ويصان الحرمان وتعلو كلمة التوحيد

ونحن هنا نرى جمهور المصريين موافقين لاخوانهم الهنديين في رأيهم وشعورهم ، ومن يعلم هذا منهم يزداد استمساكا برأيه واطمئنانا به . وما هذا منهم بعجيب فانهم لا يعرفون حقيقة حال الدولة وإنما العجيب أن يضرب بعض الكتاب العثمانيين بهذا

الدف، ويردد نغمات الحرب، ويقول إما صلح شريف نحتفظ به أدرنة أو نصف أدرنة واما موت شريف ! ! وذلك ان الدولة يئست من البلقان كله الا (أدرنة) التي ثبتت على الحصار

اني ليعز علي أن تؤخذ مدينة أدرنة غنيمة باردة بترك الدولة لها صلحا كما عز علي اضعاف ذلك تركها عملكة طرابلس الغرب وبرقة صلحا ، ولكنني لا أفهم معنى معقولا لتعريض الدولة للموت في الحرب ، ولا كيف يكون هذا الموت شريفا في سبيل المحافظة على مدينة أدرنة كلها كما يقترح بعض الكتاب ، أو على نصفها كما تقترح وزارة محمود شوكت باشا الاتحادية

ان موت الدولة ليس كموت رجل واحد يهان فيبارز من يهينه وان كان أقوى منه لينتقم منه أو يموت فلا يرى نفسه مهينا بين الناس. فان الدولة شخص معنوي وموتها عبارة من خروج الحكم فيها من أيدي أهلها الى أيدي الاجانب ، وأهلها الذين يعزون بحياتها ويشرفون ، ويذلون بموتها ويهانون ، لا يموتون بذهاب الحكم منهم ولا ينقرضون ، فهم اذاً يطلبون الوقوع فيما يحذرون .

الا إن من كتم داءه قتله ، الا انا قد سئمنا الغرور والتغرير ، ألا إنا قد أصبحنا على شفا جرف ، وسقوطنا في هاوية العدم منتظر في كل يوم ، فلم يبق عندنا شيء نخاف عليه من اظهار حقيقة حالنا لمن لا يعرفها منا . الا ان الحقيقة المجردة من لباس الزور والغرور هي ان هذه الدولة قد أمست بجهلها وسرفها وغرورها وفقرها ، ودهاء أوربة وعلومها وثروتها ، لا تستطيع أن تعيش مستقلة عزيزة في عاصمتها بقوانينها وأنظمتها وتقاليدها ، وبرجالها الذين ربتهم أوربة لها ، لانها تربية مذبذبة لا هي اسلامية ولا أوربية ، وانما تعيش في تلك العاصمة كما تريد أوربة . فلا هي قادرة أن تحفظ عاصمتها من أوربة ولا الحرمين الشريفين ولا غيرهما من البلاد . ولا يمنع أوربة أن تتصرف فيها — وهذه حالها — كما تريد الا تنازع الدول الكبرى واختلافهن فمتى اتفقن على شيء أردنه كان أمراً مفعولا

الا اني قد فطنت لهذا الامر من قبل وقتله بحثاً وتفكيراً ، ثم اقترحت على الدولة من بضع عشرة سنة أن تجعل الاستانة مركزا حربياً وتجعل عاصمتها دمشق الشام فان لم يقبل متعصبو الترك فقونية ، وأن تترك هذا التفرنج كله وتؤسس لها قوة أسيوية حربية أهلية من العرب والترك فتجعل جميع أفراد الامة مستعدين للحرب والكفاح للدفاع عن بلادهم وقت الحاجة . ولكن افتتانها بعظمة اسم القسطنطينية وموقع

القسطنطينية، وتسمية نفسها دولة أوربية ، وما يتبع ذلك من لذات هذه المدنية قد حال دون التفكر في هذا الاقتراح وتنفيذه . وقد علمت في هذه الايام ان بعض كبراء ورجال الدولة اقترح على السلطان عبد الحميد نقل العاصمة الى الاناضول قبل الانقلاب الاخير بمدة سنين ، وان أحد كبار ضباط ألمانية الذين تولوا تعليم الجيش العثماني وتنظيمه قد اقترح مثل هذا الاقتراح في الزمن الاخير ، وأخشى أن يصدق عليه المثل « بعد خراب البصرة » وجميع من أعرف من أهل الرأي العثمانية سيما الترك يرون ان استمرار الحرب خطر ، وليس له فائدة تنتظر ، وسيظهر الصواب لجميع البشر

حال الدولة ومستقبلها

فاجأنا في هذه الايام نبأ مفزع وهو ان أنور بك الضابط الاتحادي هجم على الباب العالي مع فئة من رجال جمعيته الفدائيين في حال انعقاد مجلس الوزراء وقتلوا ناظم باشا ناظر الحربية والقائد العام وبعض الحاشية واكرهوا كامل باشا على الاستقالة فذهب بها أنور الى قصر السلطان وعاد يحمل فرمان تعيين محمود شوكت باشا(١) صدراً أعظم وناظراً للحربية . فكيف حال دولة هكذا تسقط وزارتها وهكذا تنصب

سنشرح في آخر هذا الجزء أخبار هذا الانقلاب ونقول هنا ان الخطر على الدولة قد اشتد ، وسواء عادت الحرب أو لم تعد ، فان الامر بيد الدول ولن تستطيع الدولة أن تعمل بقولها شيئاً ولكن تبذل دماء ألوف كثيرة وملايين من النقد بغير عوض ولا فائدة فتزداد ضعفاً على ضعف ، ويخشى أن تستتبع فتنة أنور فتنة داخلية أكبر منها ، والامة مسجلة من الله ورسوله على موقفها ، ثم ماذا ؟

تنحصر الآمال في هذه الفرصة ما يمكن امتصاصه من وشل ثروة الامة العثمانية المكنزة ، وما يمكن من أموال المسلمين المتمتعين بالثروة والحرية وهم أهل مصر والهند ، فلا يكون ذلك كله الا كنقطة أو نقط قليلة من الماء تقع على خزفة أو آجرة سخنة . ثم لا مندوحة للدولة من الركوع بين يدي أوربة والناس مساعدتها بالمال والمال لادارة حركة الدولة الداخلية ، ويخشى ان توسل الدول بذلك الى جعل مالية الدولة وادارتها تحت مراقبتها ، وذلك منتهى ما تبغيه أوربة من إزالة هذه الدولة بالفتح السلمي .

ان ظني وظن من أعرفهم من العثمانيين المخلصين في زعماء جمعية الاتحاد والترقي سيء جداً . فنحن لا نستبعد ان يعطوا الدول فوق ما تطلب من ذلك كبيع الاراضي

(١) محمود شوكت باشا تركي الاصل بغدادي المنشأ وليس فاروقيا ولا عربي النسب كما شاع عقب الانقلاب ووقعنا يومئذ في الخطأ الذي وقع فيه غيرنا . وقد أخبرني اخوه الفاضل مراد بك بأصلهم وسبب وجودهم في العراق . وكان رفيقا لي في سفري من بغداد الى حلب

الامتيازية والامتيازات وتقوية النفوذ وهو يسم البلاد الذي يسمونه الفتح السلمي. فاذا وافاهم محمود شوكت باشا الذي نال الوزارة بمساعيهم وحقاجرهم فهي القاضية، ويجب على جميع الولايات العثمانية بالفعل أو الاسم أن لا تقبل بيع شيء من بلادها بأي اسم كان فمن يبلغهم بيع شيء من بلادهم للاجانب فليعلنوا استقلالهم وعدم اعترافهم بهذا البيع كائنا كانت صورته، ولا بالباعث مهما كانت صفته. وليعتمد كل قطر ليكون مثل طرابلس الغرب

لا أزيد تثبيط العثمانيين وسائر المسلمين عن مساعدة الدولة بالمال فانا قد ساعدنا بحسب استطاعتي، ولكنا أقول ان هذه الحرب ان عادت لا تطول، وينبغي ان يعلم المساعدون أين يضعون أموالهم، فيجعلها أهل الاقطار العثمانية على صلاح بلادهم، ويجعلها سائر المسلمين بحرم دينهم وحرم نبيهم، فان ما يذهب الى الآستانة لا يفيد المحاربين ولا غيرهما شيئا، وان لا يأمنوا جمعية الاتحاد والترقي على شيء من المال، والا ندموا بعد أيام أو شهور حيث لا ينفع الندم. بذلت هذه النصيحة وأنا موطن نفسي على احتمال ايذاء أشد مما آذتني به الحكومة الحميدية، وعلى احتمال تخطئة وذم ولعن من الجاهلين والمنافقين، كما احتملت مثل ذلك قبل من أنصار عبد الحميد، ولكن اذا كان حقنا في مقاومة عبد الحميد لم يظهر الا بعد جهاد عدة سنين، فان حقنا في الازمة الحاضرة سيظهر بعد أسابيع أو شهور، وقد كنا بين سيئات الجمعية وكسكت عن الحكومة فاذا رأينا هذه الوزارة آلة بيد الجمعية كوزارة حقي باشا فانا لا مندوحة لنا عن الوقوف طالما لم نعاد، وقد انتهينا الى وقت لا يمكن السكوت معه والانتظار،

ان الدولة على خطر لا يمكن لعاصمة البزنطيين الخروج منه ولا يرجى للاسلام خير منها، فاذا كان محمود شوكت باشا رجلا فليكسر جميع تلك القيود والمخاطر، ويقطع جميع هاتيك الاغلال والسلاسل، وليخرج الدولة من ذلك السجن الذي يتحكم بها فيه الاوربيون واليهود الصهيونيون كما شاؤا وهو عنوان الاسلام والخلافة، وليبتدئ في قلب آسية عاصمة جديدة لا اسراف فيها ولا تبذير، ولا فخفخة فيها ولا غرور، ولا مكر يهودي، ولا كيد اتحادي، ولا ضغط أوربي، وليقم الحكومة الجديدة على أساس اللامركزية، ويجعلها شق الابلمة بين الامتين العربية والتركية، بحيث يكونان أمة واحدة قوية، وينفذ ذلك بهمة تجمع بين العدل والاستبداد، بعد أن ينظف الجيش مما طرأ عليه من الفساد، ويقتل الفتنة الاوغاد. ولا يضيعن الفرصة التي أضاع مثلها من قبل، وبذلك ينقذ نفسه والدولة من الخطر، والاندم حيث لا ينفعه الندم، ونسأل الله ان يهيئ لهذه الأمة فرجا ومخرجا، وانا لا ندخر في خدمة من يعمل لانقاذها وسعا.